

الفصل الأول

مكة

بعد ذلك ، وجد أنه من المستحيل تقريباً أن يصف التجربة التي جعلته يهبط في اضطراب من الجبل إلى زوجته خديجة ، فقد بدا له أن وجود طاغ انبعث داخل الكهف الذي كان يأوى إليه ، واحتضنه بعناق شديد كأنه يعتصر أنفاسه . وفي هذا الرعب ، لم يظن محمد (ﷺ) إلا أن أحد الجن هاجمه ، تلك الأرواح النارية في بلاد العرب ، والتي كانت كثيراً ما تضلل المسافرين عن الطريق الصواب ، كما كانت الجن أيضاً تلهم الشعراء والعرافين في الجزيرة العربية .

ولقد وصف أحد الشعراء كيف يباغته جنى الشعر فجأة بدون مقدمات ، فيلقى به أرضاً ، ويخرج أبيات الشعر من فمه . لذلك عندما سمع محمد (ﷺ) الأمر المقتضب «اقرأ» ، افترض فوراً أن أحد الجن تملكه ، فأجابه : «ما أنا بقارئ» ، ولكن مهاجمه اعتصره مرة أخرى حتى ظن أنه لن يستطيع تحمله ، حينئذ سمع أول كلمات القرآن تخرج منسابة تلقائياً من فمه^(١) .

لقد شاهد (ﷺ) هذه الرؤيا في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً / ٦١٠م تقريباً . وقد سماها القرآن فيما بعد «ليلة القدر» ، لأنها جعلت منه رسول الله ، الإله الأعلى في الجزيرة العربية ، ولكنه في ذلك الوقت ، لم يكن يدرك ما يحدث . كان في الأربعين من عمره ، رجل عائلة وتاجر محترم في مكة ، المدينة التجارية المزدهرة في الحجاز . وقد كان يعرف - مثل معظم العرب - قصص نوح ، ولوط ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى (صلى الله عليهم وسلم) ، وكان يعرف أن بعض الناس

يتوقعون الظهور الوشيك لنبي من العرب، ولكن لم يتوقع أن يعهد له بهذه المهمة. في الواقع، كان مملوءاً باليأس وهو يهرب من الغار ويجرى لأسفل جبل حراء. كيف سمح الله أن يتملكه الجن؟ كان للجن نزوات، وكانت لهم سمعة رديئة، ولا يوثق بهم لأنهم كانوا سعداء بتضليل الناس. كان الوضع خطيراً في مكة. لم تكن قبيلته تحتاج لقيادة خطيرة من الجن، لأنها كانت تحتاج لتدخل مباشر من الله، الذي كان له كنه بعيد في الماضي، والذي اعتقد كثير من الناس أنه نفس الله الذي يعبده اليهود والمسيحيون.

لقد بلغت مكة مؤخراً نجاحاً مذهلاً، حيث أصبحت المدينة مركز تجارة دولياً، وأصاب تجارها وممولوها ثراء لم يحلموا به، فقد كان أسلافهم القرييون يعيشون حياة بائسة يائسة في الصحارى العنيدة في شمال الجزيرة العربية. كان نجاحهم غير عادي، لأن معظم العرب كانوا بدوياً لا يستقرون في المدن. عاش الناس على التجوال من مكان لآخر بحثاً عن الماء وأرض للرعى، في الصحراء القاحلة. كان هناك القليل من الواحات الزراعية في المرتفعات مثل الطائف، التي كانت تمد مكة بمعظم طعامها، ويشرب التي تبعد حوالي ٢٥٠ ميلاً شمالاً. كانت حياة الزراعة، ومن ثم الحضرة المستقرة، مستحيلة في سهول الصحراء الخالية من الماء، وتشتت البدو بحياتهم العجفاء عن طريق رعى الخراف والماعز، وتربية الجمال والخيول، وعاشوا في مجموعات قبلية متشابكة، حياة كفاف قاسية وشرسة بسبب تنافس الكثير منهم على مصادر عيش قليلة، لذلك كانوا دائماً جوعى وعلى حافة المجاعة، ولذلك نشبت بين القبائل حروب لا نهاية لها على الماء وأرض الرعى، وتبعاً لذلك كان الغزو ضرورياً للاقتصاد البدوى (*).

عادة ما كانت القبائل في وقت الحاجة تغزو المناطق المجاورة على أمل سلب الجمال والماشية أو العبيد، وكانت حريصة على عدم قتل أحد لأن القتل قد يؤدي إلى الثأر.

(* كان الغزو، واستلاب مال الغير، وأرضه، بل وحياته إذا لزم، ظاهرة بشرية لم تتوقف حتى اليوم، ويتفوق في ذلك تاريخ الاستعمار الغربي منذ ما يُسمى الكشوف والنهضة الأوروبية في نهاية القرن الخامس عشر، مروراً بقرون الاستعمار التقليدي - الثامن عشر إلى العشرين - وبالحرابين المدمرتين في القرن العشرين، والمعروفتين بالحرابين العالميتين، إلى الغزو الذي تقوده أمريكا لأفغانستان والعراق، وقبيلة الغزو اليهودي لفلسطين وللبلاد العربية. أما الجديد في الأمر، خاصة في الغزوات الاستعمارية الغربية الحديثة، فهو ادعاء أنها لنشر الحضارة والقيم الغربية تارة، وأنها للدفاع عن النفس تارة أخرى، مع ادعاء شرعية تلك الجرائم.

ولم يكن أحد يرى الغزو أمراً يستحق الشجب . كان الغزو حقيقة من حقائق الحياة ، ولم يكن وراءه البغض السياسى أو الشخصى ، بل كان نوعاً من الرياضة القومية تمارس بمهارة ، وفقاً لقواعد محددة بوضوح . كان وسيلة ضرورية فجة لإعادة توزيع الثروة فى منطقة لم يكن فيها الكفاية مما يحتاجه السكان .

وعلى الرغم من أن أهل مكة تركوا حياة البداوة ، فإنهم ظلوا ينظرون للبداوة على أنهم حراس للثقافة العربية الأصيلة . أرسل محمد (ﷺ) فى طفولته ليعيش فى الصحراء مع قبيلة مرضعته ليتشرب الحياة البدوية ، وكان لهذا أثر عميق فى نفسه . لم يكن البدو مهتمين بالأديان التقليدية ، ولم يكن عندهم أمل فى الحياة بعد الموت ، وكانت ثقافتهم قليلة فى آلهتهم ، التى بدت عديمة الفائدة فى تحسين بيتهم القاسية . كانت القبيلة - ليس الإله - القيمة الأعلى ، فقد كان كل فرد يخضع احتياجاته ورغباته الشخصية لمصلحة المجموعة ، ويقاتل للموت إذا لزم ليضمن بقاءها . لم يكن لدى العرب وقت للتخمين فى القوى الخارقة وما وراء الطبيعة ، وكانوا يركزون على عالمهم الأرضى ، كما لم يكن للخيال فائدة فى الصحارى الخالية من الشجر ، إذ كانوا يحتاجون واقعية نفعية معتدلة . ولكنهم طوروا قواعد للشهامة ، قدمت لهم الوظيفة الرئيسية للدين بأن جعلت لحياتهم معنى ، وحفظتهم من الاستسلام لليأس فى ظروفهم الصعبة ، وأطلقوا عليها المروءة . والمروءة تعنى الشجاعة ، والصبر والجلد ، وتشمل تكريساً كاملاً للنفس للأخذ بالثأر من أى اعتداء يقع على المجموعة ، ولحماية الضعفاء ، ولقهر الأعداء للحفاظ على شرف القبيلة . كان على كل فرد أن يكون مستعداً للدفاع عن عشيرته فور الحاجة لذلك ، وأن يطيع قائده بدون سؤال . وفوق كل هذا ، لا بد أن يكون رجل القبيلة كريماً ومستعداً لأن يشاركه الآخرون ماشيته وطعامه . تستحيل الحياة فى الصحارى إذا ادخر أناس ثروتهم بأنانية وتركوا الآخرين جوعى . والقبيلة الغنية اليوم قد تصبح معدمة غداً ، وإذا كنت بخيلاً فى أيامك الطيبة ، فمن ذا الذى يساعدك فى أيامك الصعبة ؟ . استخرجت المروءة فضيلة من هذه الضرورة ، فشجعت الكريم على ألا يهتم كثيراً بالرفاهية المادية حتى لا يصاب بالقنوط عند حياة الحرمان . لم يكن البدوى النبيل حقاً يبالى بالغد ، وكان يظهر بهداياه السخية وضيافته أنه يقدر أفراد عشيرته أكثر من أملاكه . كان دائماً مستعداً ليمنح كل ثروته - جمال وماشية وعبيد - للآخرين ، وكان يمكن أن يبدد ثروته فى ليلة واحدة بعمل وليمة فخمة لأصدقائه وحلفائه . ولكن سخاء الكريم يمكن أن يدمره شخصياً عندما يسعى وراء الشهرة والمظاهر ، فيفقد أسرته للفقر فى مقابل أن يظهر نبله وأصالته ، ويتحول بذلك الكرم إلى أنانية .

حثت المروءة على المثالية، ولكن بنهاية القرن الميلادي السادس، تأكلت بطريقة مفرجة، حين زكت العصبية القبلية من الشجاعة والتضحية بالنفس، ولكن فقط في محيط القبيلة. ولم يكن هناك مفهوم عام لحقوق الإنسان، إذ شعر البدوي بمسئوليته فقط تجاه أقربائه وحلفائه، ولم يكن يهتم قط بالآخرين، وكان يعتبرهم عديمي القيمة ومستباحين، وإذا كان عليه أن يقتل الآخرين لمصلحة قبيلته، فلم يكن يعانى ألماً نفسياً، ولم يكن ليضيع وقته في التجريدات الفلسفية أو الاعتبارات الأخلاقية. مثلت القبيلة القدسية الأعلى، ولذلك كان يحامى عنها سواء كانت على حق أو باطل. وقد أنشد أحد الشعراء:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد^(٢)

أو كما جاء في الحديث^(*): «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»^(٣).

كانت لكل قبيلة أعراف المروءة الخاصة بها، والتي اعتقد العرب أنهم ورثوها عن أسلافهم الأوائل جيلاً بعد جيل، كما ورثوا صفاتهم البدنية والأخلاقية الأخرى، وسموا أمجادهم القبلية القديمة أحسابهم^(٤). قدر العرب أسلافهم واعتبروهم المرجع الأعلى، فحفظوا تراثهم وتقاليدهم، وعدوها مقدسة ولا يجوز مخالفتها، وكان لكل قبيلة سنتها التي ورثتها وتحافظ عليها بتقليدها، وأى انحراف عنها يعد شراً كبيراً. لم يجعلوا الممارسات القديمة بسبب نبلها أو معدنها بقدر ما كان ذلك بسبب قدمها ونقلها عن الأسلاف.

من معشر سنت لهم أبائهم ولكل قوم سنة وإمامها

لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى

[ليبد بن ربيعة - المعلقة]^(٥)

لم يكن للبدو أن يخاطروا بالتجارب الجديدة، فتجاهل الشريعة، الكلمة التي تعنى الطريق إلى الماء، التي عاش بها أسلافهم من قديم الزمان يُعد جرماً وعملاً غير مسئول. تعلم العربي أن يعيش متبعاً مجموعة من القواعد التي ثبت نجاحها بتجارب أسلافه. ولكن مثل هذا القبول الأعمى للتقاليد، يؤدي إلى مغالاة في العصبية [الشوفينية] القبلية، حيث تصبح تقاليد القبيلة هي الأفضل، ولا يمكن مراجعتها أو

(*) تكملة الحديث: أن الصحابة سألوا النبي ﷺ كيف ينصرون أخاهم ظالماً؟ فأجاب «بأن تكف يده عن الظلم» - رواه البخارى ومسلم والترمذى.

التفكير فى تقاليد أخرى . ويتم الحفاظ على شرف القبلىة باتباع تقاليدها ورفض الخضوع لآى مراجع أخرى ، بشرىة أو إلهىة . وعلى الكرىم أن يكون فخوراً ومعتداً بنفسه ، معتمداً عليها ، ومستقلاً بأنفة عن الآخرين . ولم يكن التكبر خطىئة ، وإنما علامة على النبلى ، بينما كان التواضع علامة على تواضع الحسب والنسب ، وكان موالىد الطبقات الدنيا مؤهلين ليصبحوا عبيداً . لم يكن الكرىم الحقىقى ليخضع لآى شخص ، وقال الشاعر :

وأىام لنا غر طوال عصىنا الملك فىها أن ندىنا

وسىد معشر قد توجه بتاج الملك يحمى المحجرىنا^(٦)

بل كان الكرىم يحافظ على استغناؤه واعتداده بنفسه ، حتى أمام الآلهة ، فما كان هناك إله أسمى من النبىلى الحقىقى .

فى تلك الصحرارى ، احتاجت القبائل إلى رجال يرفضون الخنوع لقسوتها ، وىثقون فى قدراتهم على احتمالها ! ولكن كان لذلك الاستغناء عىوبه ، فما كان أسهل من تحوله إلى تهور وإفراط ، ومن ثم يصبح البدوى متطرفاً^(٧) ، وبسبب ذلك الشموخ فى الإحساس بالشرف ، كان رد فعله عنىفاً على كل ما يراه تهديداً له . لم يكن ىتصرف بأسلوب رد الفعل ، بل كان يرى الشجاعة الحقىقىة فى شن الهجمات الاستباقىة ، فكما قال الشاعر زهىر بن أبى سلمة (نحو ٩١ ق . هـ - ٦٦ هـ) :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه سرىعاً وإلا ىبىد بالظلم يظلم

[زهىر بن أبى سلمة] .^(٨)

كانت تلك الشجاعة التى ىمتدحها الشاعر ، حماسة لا ىمكن ولا ىجب كبجها ، وإذا وقع الظلم على أحد أفراد القبىلة ، وجب على الكرىم المتعطش للشار الانتقام بتعذىب الجانى^(٩) ، لقد كانت تلك نظرة مأساوىة . أراد البدو تمجىد كفاحمهم ، ولكن كانت حىياتهم عابسة ولا أمل فى تحسىنها ، وكانوا ىرون كل الأحداث مكتوبة علىهم بالدهر ، والذى قدر عليهم كل معاناتهم وحىواتهم مسبقاً .

لا شيء يدوم، حتى المقاتلون المنتصرون يموتون ويطويهم النسيان، فهناك عبثية متأصلة في هذه الحياة. كان العلاج الوحيد لليأس المتمتع بملذات الدنيا، خاصة السلوان بشرب النبيذ.

حاول الكثير من البدو الإفلات من حياتهم البدوية وبناء حياة حضرية مستقرة، ولكن لم يحققوا النجاح بسبب ندرة الماء والأراضي الصالحة للزراعة والجفاف^(١٠). لم يكن بوسع قبيلة أن تبنى مستعمرة إلا إذا تراكمت لديها ثروة كبيرة. الأمر شبه المستحيل. أو أن تستقر في واحة ذات مياه وأراض قابلة للزراعة، كما فعلت ثقيف في الطائف، وكان البديل الآخر أن تعمل القبيلة كوسيط لإحدى حضارات المنطقة الثرية، كما فعل الغساسنة عندما استقروا في الشتاء على حدود الإمبراطورية البيزنطية وعملوا كوكلاء لها، وتحولوا إلى المسيحية، فشكّلوا حاجزاً يحمي البيزنطيين من الفرس.

ولكن لاحت فرصة في القرن السادس بتطور ثورى في وسائل النقل. فقد اخترع البدو الخُرْج الذى مكّن الجمال من نقل البضائع الكثيرة، وصار تجار الهند وشرق إفريقيا واليمن والبحرين يستخدمون الجمال التى تستطيع عبور الصحراء العربية بالسير فيها أياماً بدون ماء، وبلا مشقة، فتنتقل إلى الشام والإمبراطورية البيزنطية، البخور والتوابل والعاج والحبوب واللؤلؤ والأخشاب والأقمشة والأدوية، فى قوافل تأخذ مساراً مباشراً فى الجزيرة العربية، يقودها العرب من عين ماء إلى الأخرى ويحمونها.

وأصبحت مكة محطة فى منتصف الحجاز لتلك القوافل التجارية. وبرغم أنها كانت على أرض صخرية غير قابلة للزراعة، فقد أمكن الاستقرار فيها والعيش على نبع زمزم، وربما أدى الاكتشاف الذى ظهر معجزاً - لذلك النبع المائى فى الأرض القاحلة إلى إضفاء القداسة عليه منذ زمن قديم سابق على نشأة مكة كمدينة. لقد جذب ماء زمزم الحجاج من كل أنحاء الجزيرة العربية، والذين ربما جذبتهم الكعبة، ذلك البناء القديم ذو المنافع المقدسة لـ «طائفة» زمزم^(*). تعاقبت القبائل على رعاية الحرم خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، فكانت جرهم، ثم خزاعة، وأخيراً قريش فى بداية القرن السادس الميلادى، التى كانت أول من أحاطت الكعبة بسياج من المبانى، وأخرجت من سبقوها.

(*) لم نجد أصل فى المراجع العربية عن طائفة زمزم أو عبادة زمزم «Zamzam Cult».

أسس قصى بن كلاب قبيلة قريش، بأن جمع عشائر - كانت في السابق متحاربة - وكانت ترتبط عن بعد بصلات دم ونسب، مع بداية ظهور مكة كمركز للتجارات البعيدة، وربما جاء اسم قريش من فعل التقرش، أى الجمع أو الاكتساب^(١١)، وبالتباين عن جرهم وخزاعة، اللتين لم تستطعا التخلي عن البداوة، راكمت قريش رأس المال الذى كفل أسلوب حياة حضرياً مستقرأً، ونجحت في تأمين احتكارها لتجارة الشمال والجنوب، وأن تقدم خدماتها للقوافل الأجنبية، وأن تسيطر على الأنشطة التجارية التى أنعشتها التجارة الدولية داخل الجزيرة العربية. بدأت قبائل البدو في التجارة بين بعضها البعض منذ أوائل القرن السادس^(١٢). فكانت تعقد أسواقاً متتابعة في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية، تدور مع عقارب الساعة، وتحشد التجار بتجاراتهم المختلفة، يبدأ السوق الأول في البحرين، أكثف المناطق سكاناً، ثم عمان، فحضر موت، واليمن، وتنتهى الدائرة بخمسة أسواق متتابعة في مكة وما حولها، آخرها سوق عكاظ، قبيل شهر الحج مباشرة.

بدأت قريش في النصف الأول من القرن السادس الميلادى في إرسال قوافلها التجارية إلى الشام واليمن، وبالتدرج، وأسست تجارتها المستقلة. ولكن برغم ذلك النجاح، عرفت قريش أنها عرضة للخطر، فهى لا تستطيع تأمين طعامها لعدم قابلية أرضها للزراعة، وهى تعتمد كلية على شراء طعامها بمبادلاتها التجارية، فإذا فشلت تجارتها فلن تجد ما تأكله، ولذلك ارتبط كل قرشى بالتجارة، من مقرض - كبنوك اليوم - إلى ممول، إلى تاجر. احتفظ العرب في الواحات الزراعية في الجزيرة العربية بروح البداوة، لأنها يمكن أن تتوافق مع الزراعة، أما قريش، فقد اكتسبت روح التجارة ومزاجها الخاص، مما أفقدها الكثير من القيم التقليدية للمروءة. فعلى سبيل المثال، أصبح عليها أن تعيش في سلام؛ لأن حالة الحرب المستوطنة بين القبائل في الصحارى لا تسمح بازدهار التجارة. كان على مكة أن تصبح سوقاً آمناً يأتى إليه التجار من مختلف القبائل، ويجمعون في سلام وحرية بدون الخوف من التعرض لهجمات السلب والنهب. لذلك، رفضت قريش بعزم وثبات التورط في حروب وأحلاف القبائل، وحافظت على الحياد بينها. قبل قيام قريش برعاية الكعبة، قامت معارك دموية بين القبائل المتنافسة على ذلك الشرف، إلى أن نجحت قريش بمهارة في أن تؤسس حرماً آمناً يحيط بالكعبة، نصف قطره ٢٠ ميلاً^(١٣)، وعقدت قريش اتفاقات

مع البدو، منعتهم من مهاجمة القوافل التجارية في مواسم الحج والعمرة، ومواسم الأسواق، في مقابل تعويضات للقبائل على قيامها - بدلاً من هجمات السلب والنهب - بإرشاد وحماية تلك القوافل.

بذلك ارتبطت التجارة بالدين في مكة. كان موسم الحج ذروة دورة السوق، وهيات قريش للحجاج الدين والحرم، فأصبحت مركزاً روحياً للقبائل العربية. كان لكل قبيلة إلهها الذي يجسده تمثال حجري، وجمعت قريش أصنام القبائل في الحرم، حتى يصبح بمقدور كل قبيلة أن تعبد إلهها في الكعبة. لذلك أصبحت حرمة الكعبة أساسية في بقاء قريش، وفهم منافسو قريش ذلك. ولجذب الحجاج والتجار بعيداً عن قريش، بنى حاكم إثيوبيا واليمن حرماً منافساً، وقاد جيشاً في عام ٥٤٧م إلى مكة ليثبت أنها ليست بمأمن من الحرب. ولكن يُقال إن فيل الحرب الذي سار به رفض أن يهاجم الحرم، وعاد الإثيوبيون من حيث أتوا، متأثرين بالمعجزة التي عاينوها، وصار عام الفيل رمزاً على حرمة مكة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾
[سورة الفيل: ١ - ٥] (١٤).

لم يكن الدين مجرد مظهر فارغ للتقوى، فقد أثرت طقوسه الحجاج بتجربة عميقة، إذ إنه بعد عكاظ السوق الأخيرة، يصل الحجاج مكة ولديهم إحساس بالرضا من إنجازهم مفعم بالإثارة. تهيم قريش الراحة للقوافل، للتجار وخدمهم وجمالهم، وبعد أن يدفعوا مقابلاً زهيداً كرسوم للحرم، يبدؤون طقوس الحج، ويرددون بعض الأدعية - في طرقات مكة - لإعلام الآلهة بوصولهم، ومثولهم أمام آلهتهم في مكة يجعلهم يحسون بأنهم في أوطانهم الأصلية. يطوفون بالكعبة - التي يحيط بها ٣٦٠ صنماً - سبع مرات، ذلك التقليد الذي ربما كان منشؤه طلب أمطار الشتاء من الآلهة (*)، ثم يسعون بين الصفا والمروة شرق الكعبة، ثم ينتقلون إلى المزدلفة، موطن إله الرعد (**)، ويبيتون هناك بالقرب من جبل

(*) يتغير زمن موسم الحج سنوياً بالنسبة للفصول الأربعة، فيأتي في الشتاء ويأتي في الصيف، وفي الخريف وفي الربيع.

(**) لم تنقل إلينا المصادر العربية أي خبر يفيد أن المزدلفة كانت موطن إله الرعد، وربما اعتمدت المؤلفة على ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية (ليدن، هولندا)، التي لم يذكر واضعها المستشرقون مصدر هذا الخبر من التراث العربي القديم.

عرفة، ١٦ ميلاً من مكة، ثم يلقون الجمرات فى منى، ويختمون الحج بنحر إناث جمالهم، أعلى ما يملكون دليلاً على ثرائهم، ومن ثم على قدرهم.

الطواف حول الكعبة سبع مرات فى اتجاه عكس دوران عقارب الساعة هو أشهر المناسك، صار الطواف طقساً مرغوباً يؤديه بإخلاص على مدار العام أهل مكة وضيوفها، واكتسب الحرم المكى أهمية سلفية مثل الأضرحة الأخرى فى العالم القديم^(١٥). تمثل الكعبة بأضلاعها الأربع الجهات الأصلية الأربعة، ومن ثم العالم، وفى ضلعها الشرقى، يمثل الحجر الأسود، الذى أصله نيزك سقط من السماء، الارتباط بين السماء والأرض، وطواف الحجاج حول الكعبة يتبع دوران الأرض حول محورها، مما يجعلهم فى توافق مع النظام الكونى. فالدائرة رمز للشمولية، والحركة على مسار دائرى، حيث يعود المرء لنقطة بدايته، يبتئ إحساساً بالمعاودة والانتظام. كذلك يتبصر الحجاج بدورانهم حول الكعبة مركزهم وميولهم الحقيقية، ويفرغ دورانهم الوئيد حولها عقولهم من الأفكار الشاردة، ويهسى لهم حالة من التأمل والتدبير.

جعلت الطقوس - التى تم إصلاحها - من مكة مركزاً للعرب، فبينما كان الحجاج الآخرون يضطرون لمغادرة مواطنهم والارتحال لبلاد أخرى، لم يضطر العرب لمغادرة جزيرتهم، مما مثل قانوناً فى حد ذاته. دعم كل ذلك من مركزية مكة للعالم العربى^(١٦). كانت مكة أيضاً معزولة، فلم يكن هناك ما يجعل من موقعها الصعب ومن صحارى الجزيرة العربية مطمعاً للفرس أو الروم - القوى العظمى فى ذلك الوقت - فتهيات لها وللعرب حرية نادرة، واستطاعت قريش أن تصنع اقتصاداً حديثاً بدون سيطرة إمبريالية من الخارج. كان العالم يمر بمكة، ولكن لا يبقى وقتاً كافياً يتيح له التدخل فى شئونها. استطاع العرب بناء وتطوير معتقداتهم، وكذلك أن يستفيدوا من معارف وخبرات جيرانهم، بالطريقة التى يختارونها. لم يضغط عليهم أحد لاتباع دين أو نظام غريب عليهم، وزكت الدائرة المغلقة لحجهم ولتجارتهم، روح الاكتفاء الذاتى الاستغنائى التى أصبحت علامة فى ثقافتهم.

أفاد الانفصال المكى عن الفرس والروم اقتصاد مكة فى سلامته من الأضرار التى تصيب تلك القوتين، بل استطاعت قريش فى واقع الأمر الاستفادة من المصائب التى ألمت بهما.

ففى سنة ميلاد النبى (ﷺ) (٥٤ ق. هـ. / ٥٧٠م) أنهكت سلسلة من الحروب كلاً من فارس وبيزنطة، وكانت الشام والعراق ميداناً لذلك، فتوقف الكثير من مسارات التجارة خلالهما، وأمست مكة بزمام التجارة بين الشمال والجنوب^(١٧)، وازدادت سلطة قريش، ولكن رأى البعض أن قريشاً تدفع ثمناً باهظاً لنجاحها. ومع اقتراب القرن السادس من نهايته، دخلت قريش فى أزمة مستحكمة أخلاقياً وروحياً.

مزق اقتصاد السوق روح المجتمع القديمة، وحل محلها التنافس عديم الرحمة، والطمع والفردية والأنانية. تنازعت وتحاسدت العائلات على الثروة والجاه، وأهمل أغنياء القبيلة عشائرها قليلة الحظ والوجد، ليراكموا ثرواتهم الخاصة، ولم يكتفوا بذلك، بل جاروا على حقوق اليتامى والأرامل.

انتشى الأغنياء بأحوالهم الجديدة، ورأوا أنها أنقذتهم من بؤس البداوة وعوزها، ولكن أولئك الذين تخلفوا فى السباق المحموم أحسوا بالضيق.

لم تتوافق روح المروءة مع قوى السوق، التى همّشت الكثيرين عن المجتمع، ولم تظهر قيم جديدة توازن الاختلالات الجديدة للمجتمع، وأخبرتهم روح الجماعة الباقية فيهم أن الفردية الجديدة سوف تدمر القبيلة.

ولد محمد (ﷺ) فى عشيرة بنى هاشم، واحدة من أوسط عائلات قريش. كان جده الأكبر أول من تاجر لحسابه مع الشام واليمن، وكان لبنى هاشم شرف سقاية الحجاج، ولكن أصابت هاشمًا ضائقة مالية. كذلك مات أبوه عبد الله قبل ولادته، وكانت أمه أمينة فى شدة حتى أن المرضعة التى أخذت محمداً (ﷺ) كانت من أفقر قبائل الجزيرة العربية. عاش محمد (ﷺ) عند حليمة السعدية ست سنوات من الحياة البدوية فى أحسن صورها. وبعد عودته إلى مكة بسنة، ماتت أمه، مما ترك فيه حزناً مضاعفاً واهتماماً كبيراً باليتامى، كما سنرى.

عاش محمد (ﷺ) مع جده عبد المطلب، الذى أحبه وقربه إليه، وكان يأخذه معه إلى الكعبة وسط أعمامه، ويجلسه بجواره ويربت على ظهره بحب، ولكن مات عبد المطلب ومحمد (ﷺ) ما زال فى الثامنة ولم يرث شيئاً. أخذه عمه أبو طالب، كبير بنى هاشم، وذو المكانة الرفيعة فى مكة، برغم أن أعماله التجارية كانت فى

هبوط . أحب أبو طالب محمداً (ﷺ) حباً كبيراً، كذلك أحبه أعمامه، فدربه عمه حمزة، أصغرهم، على فنون الرمي والقتال بالسيف، بينما هيا له عمه العباس، وهو رجل مال وتجارة، أن يقود إحدى القوافل التجارية إلى الشام (*).

كان محمد (ﷺ) الشاب محبوباً في مكة، كان وسيماً متناسق الجسد متوسط القامة، وكانت ابتسامته ساحرة، كما ذكرت كل المصادر. كان حاسماً مخلصاً في عمله، ويلتفت بكامله لكل من يكلمه، ولا يسحب يده من المصافحة حتى يسحبها الآخر. وثق الناس فيه حتى سموه الأمين، ولكن يتمه أثر عليه. أراد الزواج من بنت عمه فاخته، ولكن رفض عمه أبو طالب ذلك برفق مشيراً لأنه لن يستطيع إعالتها.

وعندما بلغ محمد (ﷺ) الخامسة والعشرين، تغير حظه، فقد سأله خديجة بنت خويلد، وهي قريبة له من بعد، أن يتجر لها في قافلة إلى الشام. كانت عشيرتها- بنو أسد- أكثر نفوذاً من بنى هاشم، وهي تاجرة ناضجة ثرية من بعد وفاة زوجها. هيات الحياة الحضرية في مكة لنساء الصفوة فرص النجاح، في وقت لم تكن هناك أى قيمة لنساء الطبقات الفقيرة.

نجح محمد (ﷺ) في تجارته بطريقة أعجبت خديجة لدرجة أنها طلبت الزواج منه. لقد أرادت زوجاً جديداً، وكان محمد (ﷺ) قريبها اختياراً مناسباً:

قال ابن إسحاق: «فقال له - فيما يزعمون - يا بن عم، إنى قدر غبت فيك لقربتك منى، وشرفك فى قومك، وسطنتك فيهم، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك». [السيرة النبوية لابن إسحاق، ط دار الكتب العلمية: ص ١٤٩] (١٨).

أثار بعض نقاد محمد (ﷺ) بأن ذلك كان زواج منفعة، ولكن فى الحقيقة، أحب محمد (ﷺ) خديجة ولم يتخذ زوجة أخرى شابة معها، مع أن ذلك كان مقبولاً فى أعرف العرب.

قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته». [السيرة النبوية: ص ١٤٩] (١٩).

(*) لم نجد فى المصادر العربية أن حمزة كان يدرب النبى ﷺ على فنون الرمي والقتال بالسيف، كما أن الذى هيا له التجارة إلى الشام هو عمه أبو طالب.

لقد كانت أول من اكتشف أصالة محمد (ﷺ)، ولأنه فقد أمه مبكراً، فلقد أخلص لها العاطفة، واعتمد على نصيحتها ودعمها. وبعد موتها، كانت بعض زوجاته تغرن من كثرة حديثه القلبي عنها.

ربما كانت خديجة في أواخر الثلاثينيات من عمرها عند زواجها بمحمد (ﷺ)، ولقد أنجبت له ستة أبناء على الأقل، القاسم وعبدالله، وقد ماتا في الطفولة وبناته الأربع: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، واللاتي أحبهن محمد (ﷺ) حباً جارفاً.

لقد كانت أسرة سعيدة، وداوم محمد (ﷺ) بإصرار على جعل نسبة من دخل الأسرة لصالح الفقراء، كذلك ألحق صبيين بأسرته. فقد أهدته خديجة يوم زفافهما عبداً صغيراً اسمه زيد بن حارثة، من إحدى قبائل الشمال. وقد أحب زيد محمداً (ﷺ) حتى أنه عندما قدم أبواه بجال لفدائه، توسل زيد لمحمد (ﷺ) أن يبقيه معه ولا يطلقه حرّاً لأبويه، وهنا أعطاه محمد (ﷺ) حريته، وتبناه. كذلك أضاف محمد (ﷺ) لعائلته ابن عمه علي بن أبي طالب ذي الخمس سنوات، الذي كان أبوه يمر بأزمة مالية، وقربه إليه كما لو كان ابنه.

نحن نعرف القليل عن تلك السنوات الأولى، ولكن يمكننا أن نستنتج من السيرة اللاحقة، أن محمداً (ﷺ) قد أدرك الخلل الذي أصاب مكة، خاصة في أجيالها الجديدة، فقد أصبحت التفرقة واضحة بين الأغنياء والفقراء. عاش الأوائل حول الكعبة، وعاش الباقون في أطراف مكة البعيدة، وتخلّى أهل مكة عن المروءة والكرم، وانقلبوا بخلاء تحت زعم مهارة التجارة والاقتصاد. وأصبح بعضهم لا يؤمن بالقدر، بعد أن نجح في تغيير حظه، بل وصل ببعضهم التفكير في أن الشراء سيجلب لهم نوعاً من الخلود.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)﴾
[سورة الهمزة: ١-٣] (٢٠).

واتبع الآخرون ملذاتهم وأهواءهم، واتخذوها آلهة لهم:
﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَسَلَ
نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَّا
يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا
كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ [سورة الأنعام: ٧٠].

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١) [سورة الأعراف: ٥١]، ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٢) [سورة الفرقان: ٤٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢) [سورة: الجاثية: ٢٣] (٢١).

تزايد إدراك محمد (ﷺ) بأن قريشًا تخلت عن أفضل ما في المروءة واستبقت أسوأ صورها، من طيش وتكبر، إلى إحساس متضخم بالذات، مما يدمر أخلاقيات المجتمع ويؤدي به إلى الهلاك. اعتقد بوجوب إجراء إصلاح اجتماعي مبني على حل أخلاقي وروحي جديد، وإلا فلن يؤتى ثماره. ربما أدرك في أعماقه بأن له موهبة استثنائية، ولكن ما عساه أن يفعل؟ لن يأخذه أحد على محمل الجد؛ لأنه رغم زواجه من خديجة، لم تكن له وجهة اجتماعية في مكة.

كان هناك قلق واضطراب روحي واسع. لقد طور العرب الذين استقروا في المدن والمجتمعات الزراعية في الحجاز رؤية دينية جديدة، وصاروا أكثر اهتمامًا بالآلهة من البدو، ولكن آلهتهم البدائية كانت عديمة الجذور في الجزيرة العربية. رويت قصص أسطورية قليلة جدًا عن آلهة متنوعة. كان الله أهم إله، وكان ينظر إليه أيضًا على أنه إله الكعبة، ولكن كان ينظر إليه أيضًا على أنه بعيد عن العالم وقليل التأثير على الناس في حياتهم اليومية. ومثله مثل بقية الآلهة العليا، أو آلهة السماء المعروفة في الأديان القديمة. لم يطور الله لهم عبادة متكاملة، ولم يصنعوا له تماثيل (٢٢). يعرف كل الناس أن الله خلق العالم، وأنه يصنع الحياة في الأرحام، وأنه يسقط الأمطار، ولكن ظلت تلك المعتقدات مجردة. صلى العرب لله في الأزمات، ولكن نسوه كلية بعد انتهاء الخطر.

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن لَّمْ أَجِبتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢) ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمُ يَعْبُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

الأَرْضُ زُخْرُفُهَا وَازْيَنْتَ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ [سورة يونس : ٢٢ - ٢٤] (٢٣).

فى الحقيقة، بدأ الله بذلك كأب غير مستئول، غائب، ترك العالم بعد أن خلقه (٢٤)

عبدت قريش آلهة أخرى أيضاً. كان هناك الإله هبل، وله تمثال كبير من الصخور المائلة للحمرة داخل الكعبة (٢٥)، وكانت هناك ثلاثة آلهة: اللات، والعزى، ومناة، وكانت تسمى بنات الله، وكانت مشهورة تماماً فى المجتمعات المستقرة، وكانت تماثيلها الكبيرة فى الطائف ونخلة وقديد تقارب قداسة الحرم المكى؛ حيث نصب مناة على ساحل البحر من ناحية المشلل مما يلى قديداً، بينما كانت اللات فى ثقيف بالطائف، أما العزى فكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراضاً على يمين الصاعد إلى العراق من مكة. وبرغم أنها كانت أقل مرتبة من الله، فقد كانت تسمى صاحبات أو شريكات، وكانت تشبه بالغرانيق الجميلة التى تطير أعلى من أى طيور أخرى. وبرغم أن تلك الآلهة لم يكن لها أضرحة فى مكة، فقد أحببها قريش، وتوسلت إليها للتوسط بينها وبين الله الذى لا يمكن الوصول إليه، وكانوا ينشدون أثناء طوافهم بالكعبة «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنها الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى».

قال ابن الكلبي: «كانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى». [الأصنام لابن الكلبي: ص ١٨] (٢٦).

كانت عبادة الأصنام حماسة دينية حديثة لدى العرب، جلبها من الشام أحد المكين الأوائل، الذى اعتقد أن بمقدورها جلب الأمطار، ولكن ليس لدينا أى فكرة عن سبب اعتقادهم بأن الآلهة الثلاثة: اللات والعزى ومناة، هن بنات الله، خاصة مع اعتبار العرب ميلاد الإناث من سوء الطالع، حتى أنهم كثيراً ما كانوا يقتلونهن. لم تعط آلهة العرب أى هداية أخلاقية لهم، ومع ذلك، رأى كثير من العرب فى طقوس العبادة ما يكفى، ولكن وجد بعض القرشيين أن تلك الأوثان الحجرية رموز غير كافية للمقدس (٢٧).

ولكن ما هو البديل الذي كان مطروحاً؟

عرف العرب الديانتين التوحيديتين: اليهودية والمسيحية. فربما عاش اليهود في الجزيرة العربية لمدة قد تزيد على الألف سنة بعد أن هاجروا إليها من بعد الأسر البابلي والغزو الروماني لفلسطين. كان اليهود أول من استقر في يثرب وخيبر في الشمال للزراعة، كذلك كان هناك تجار يهود في المدن، وبدورحل من اليهود. لقد حافظ اليهود على ديانتهم، وشكلوا قبائلهم، ولكنهم امتزجوا مع العرب بالزواج المختلط حتى صاروا منهم، فاتخذوا أسماءً عربية، ونظموا أنفسهم على الطريقة العربية حتى أصبح من الصعب التمييز بينهم وبين العرب.

تحول بعض العرب إلى المسيحية، فصارت هناك بعض المجتمعات المسيحية في اليمن، وعلى حدود الدولة البيزنطية في الشام. قابل التجار العرب رهباناً ونسائماً مسيحيين في رحلاتهم، وعرفوا منهم قصص المسيح، ومفهوم الجنة والحساب في يوم القيامة، وسموا اليهود والمسيحيين أهل الكتاب، وأعجبته تلك الفكرة وتمنوا لو كان لهم كتاب بالعربية.

في ذلك الوقت، لم يكن العرب يرون اليهودية أو المسيحية كديانة حصرية مختلفة بشكل كبير عن دينهم. وفي الواقع، أشارت كلمة «يهودي» أو «مسيحي» إلى انتماء قبلي أكثر مما أشارت إلى اتجاه ديني^(٢٨). كانت اليهودية والمسيحية داخل السعة الروحية، ومتوافقتين تماماً مع الروحانية العربية. ولأنه لم تكن هناك أى قوى إمبراطورية تسعى لفرض نظامها الديني على العرب، فقد تمتعوا بحرية تعريب ما يحتاجونه من تقاليد اليهودية والمسيحية. اعتقدوا أن الله هو نفسه الإله الذي يعبده اليهود والمسيحيون، ولذلك كان المسيحيون العرب يحجون إلى الكعبة، مع الوثنيين العرب، وكان يُقال إن آدم بنى الكعبة بعد خروجه من الجنة، وإن نوحاً أعاد بناءها بعد الطوفان. كذلك عرفت قريش أن الكتاب المقدس يقول عنهم إنهم أبناء إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، وإن الله أمر إبراهيم أن يترك هاجر وابنها إسماعيل في الصحراء، مع وعد بأن يصبح أولاد إسماعيل أمة عظيمة. وبعد ذلك، زار إبراهيم ابنه إسماعيل، وأعاد اكتشاف مكان الكعبة، ثم قام بإعادة بنائها، وسن مراسم الحج.

«ورأت سارة أن ابن هاجر المصرية الذى أنجبته لإبراهيم يسخر من ابنها إسحاق، فقالت لإبراهيم: «اطرد هذه الجارية وابنها، فإن ابن الجارية لن يرث مع ابنى إسحاق» فقبح هذا القول فى نفس إبراهيم من أجل ابنه. فقال الله له: «لا يسوء فى نفسك أمر الصبى أو أمر جاريتك، واسمع لكلام سارة فى كل ما تشير به عليك لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وسأقيم من ابن الجارية أمة أيضاً لأنه من ذريتك». [سفر التكوين- ٢١- ٩ : ١٣-٢٩](*) .

علم الجميع أن العرب واليهود عشيرة واحدة . وكما بين المؤرخ اليهودى يوسفوس (٣٧- ١٠٠ م تقريباً)، كان العرب يختنون فى سن الثالثة عشرة؛ لأن جدهم الأكبر إسماعيل، الذى أنجبه إبراهيم من خليلته هاجر، اختتن فى ذلك السن^(٣٠). لم يشعر العرب بضرورة التحول إلى اليهودية أو المسيحية؛ لأنهم اعتقدوا أنهم كلهم أعضاء فى الديانة الإبراهيمية، وفى الواقع، كانت فكرة التحول من إيمان إلى آخر غريبة على قريش، والتى كانت رؤيتها للدين تعددية^(٣١). كانت كل قبيلة تحج إلى مكة لعبادة إلهها الخاص، الذى يقف فى الحرم مع الآلهة الأخرى فى بيت الله. لم يفهم العرب فكرة أنظمة الإيمان المغلقة على أتباعها، ولم يجدوا تعارضاً بين التوحيد وتعدد الآلهة. لقد نظروا إلى الله فى الكعبة محاطاً بحلقة من الآلهة كرب لهم، بالطريقة نفسها التى رأى بها كتاب العهد القديم من الكتاب المقدس يهوه كإله أعلى من بقية الآلهة.

«قد عرفت أن الرب عظيم، وأن سيدنا أسمى من جميع الآلهة.» [سفر المزمير- المزمور ١٣٥ : ٥](٣٢).

ولكن صار بعض عرب الحضر غير راضين بالتعددية الوثنية، وحاولوا ابتداء توحيد عربى أصلى^(٣٣)، وقبيل الهبوط الأول للوحي على محمد (ﷺ)، كانوا قد تخلوا عن عبادة أوثان الكعبة، فقال بعضهم لبعض:

(*) طبقاً للموسوعة البريطانية الموجزة «Britannica Concise Encyclopedia»، هاجر العرب من جنوب الجزيرة العربية حوالى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد إلى شمال الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، أى العراق الآن، والساحل الشرقى للبحر المتوسط، ودلتا النيل، فكان أصل نبي الله إبراهيم (ﷺ) وزوجه سارة عربى. ص ١٧١٩ طبعة ٢٠٠٦م، كذلك جدير بالذكر أن نبي الله يعقوب (ﷺ) الذى أصبح اسمه إسرائيل، وتعنى الكلمة: مجاهد الله، كان له أربع زوجات: ابنتا خاله، وجاريتاهما، ومن هؤلاء الزوجات الأربع جاء بنو إسرائيل.

روى ابن إسحاق قولهم: «تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نظيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع! يا قوم التمسوا لأنفسكم «ديناً» فإنكم والله ما أنتم على شيء».

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم». [السيرة النبوية: ص ١٧١] (٣٤).

لم يكن الباحثون عن الحنيفية طائفة منظمة، فقط اجتمعوا على إزدراء عبادة الأوثان الحجرية، واعتقدوا أن الله هو الإله الوحيد، ولكن لم تتطابق أفكارهم في أكثر من ذلك. توقع بعضهم ظهور نبي عربي برسالة إلهية لإعادة إحياء ديانة إبراهيم الأصلية، واعتقد آخرون أن ذلك ليس ضرورياً، وأنه بإمكان الناس الرجوع إلى الحنيفية بمبادرات شخصية منهم، وبشر آخرون بقيام الأموات ليوم الحساب الأخير، كذلك كان منهم من اعتنق المسيحية أو اليهودية، كحل مؤقت لحين إعادة تأسيس دين إبراهيم.

كان للأحناف تأثير ضعيف على أقرانهم؛ لأنهم كانوا معنيين بالدرجة الأولى بخلاصهم الشخصي، وكانت عقيدتهم سلبية أكثر مما كانت إيجابية، فهم كانوا يعرفون ما يجب عليهم ألا يفعلوه في العبادة، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه، ولذلك بدلاً من أن يتدعوا شيئاً جديداً، انسحبوا من التيار الرئيسي، ولم تكن لديهم رغبة لإصلاح الحياة الاجتماعية أو الأخلاقية في الجزيرة العربية. وفي الواقع، الأصل اللغوي العربي للحنيفية هو حنْف، أى مال عن أو انحرف عن، والمقصود عن عبادة الأوثان.

ولكن كانت الحركة دليلاً على القلق الروحي لدى العرب في بداية القرن السابع الميلادي، ونحن نعلم أن محمداً (ﷺ) كان على صلة بثلاثة من أبرز أحناف مكة: عبيد الله بن جحش ابن عمته، وورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وأصبح الاثنان مسيحيين، وزيد بن عمرو بن نفيل، الذي هاجم الوثنية في مكة بعنف حتى طرده المكيون، والذي أصبح بعد ذلك من أقرب الصحابة لمحمد (ﷺ). ويبدو أن محمداً (ﷺ) دخل دوائر الأحناف، وشارك زيداً تطلعه للهداية الربانية.

قال ابن إسحاق: «كان زيد بن عمرو بن نفيل يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: «اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه. ثم يسجد على راحته». [السيرة النبوية: ص ١٧٣] (٣٥).

كان محمد (ﷺ) يبحث عن حل جديد، وكان لعدة سنوات يعتزل الناس في غار حراء في شهر رمضان، يوزع الصدقات على الفقراء الذين يزورونه، ويتفرغ للتأمل والتفكير (٣٦). نعلم القليل عن تلك الممارسة، والتي تعتقد بعض المصادر أن جد محمد (ﷺ) هو الذي ابتدعها، والتي يبدو أنها جمعت بين الاهتمام بالمجتمع، مع طقوس العبادة، والتي قد تكون شملت السجود لله (٣٧)، والطواف حول الكعبة. في تلك الفترة، بدأ محمد (ﷺ) يرى في منامه أحلاماً تشع بالآمال والوعود.

روى ابن إسحاق عن عائشة: «إن أول ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله (ﷺ) رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح. قالت: وحبب الله - تعالى - إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده». [السيرة النبوية: ص ١٧٩] (٣٨).

وحوالي عام (١٢ ق. هـ / ٦١٠ م)، وهو معكف في غار حراء، تعرض لهجوم مباغت مذهل. الكلمات التي أعتصرت، وكأنها من أعماق روحه، أصابت جذر مشكلة مكة:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [سورة العلق: ١ -

[١٩].

مثلت تلك الكلمات امتداداً لاعتقاد قريش أن الله خلق كل شخص منها، وكشفت وهم مروءة الاستغناء، وأظهرت الاعتماد الكلي للبشر على الله.

أخيراً أصر الله على أنه ليس إلهاً بعيداً غائباً، بل حاضراً لهداية مخلوقاته، ويجب عليهم الاقتراب منه، ولكن بدلاً من اقتراب بروح استغناء المروءة، عليهم السجود له ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (٣٩).

هكذا أمر الله، سجد تبغضه عجرفة قريش. منذ البداية، تعارضت ديانة محمد (ﷺ) تماماً مع بعض المبادئ الأساسية لمروءة قريش.

بعد لقائه الأول مع الوحي، وعندما تمالك محمد (ﷺ) نفسه، سرعان ما تملكه الرعب من التفكير في أنه بعد كل جهاده الروحي يتلبسه جنى، حتى أنه لم يعد يريد الحياة. وفي غمرة اليأس، خرج مسرعاً من الكهف، ليرتقى قمة يلقي بنفسه منها للموت، ولكنه شاهد رؤية أخرى، كائنات ساد الأفق ومحملقاً فيه! . . . قال القرآن عن ذلك:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩)﴾ [سورة النجم: ٥-٩] (٤٠).

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ): «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في أفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيتك كذلك، فمازلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني». [السيرة النبوية: ص ١٨١] (٤١).

لقد كان روح الوحي، والذي سماه محمد (ﷺ) فيما بعد جبريل، ولكنه لم يكن ملاكاً جميلاً كما تصوره الطبيعة البشرية، وإنما حضور متسام عن إدراك البشر الأرضي.

هبط محمد (ﷺ) من الجبل مرتاعاً محتاراً، متعثراً في طريقه لخديجة، وعلى عتبة منزله، كان يقول مرتجفاً «زملوني زملوني!»، وألقى بنفسه في حضنها. لفته

خديجة بالثياب واحتضنته حتى ذهب الروح عنه . لم يساورها أدنى شك فى الوحي .
قالت فى إصرار : يا بن عم ، أثبت وأبشر ، فوالله إنه ملك وما هذا بشيطان .

جاء فى صحيح البخارى : «يا بن عم ، أثبت ، وأبشر ، فوالله إنه ملك ، وما هذا
شيطان . فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ،
وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقوى الضيف وتعين على النوائب» .
[البخارى : باب بدء الوحي ، ح رقم ٣] (٤٢) .

ربما كان محمد (ﷺ) وخديجة قد ناقشا فيما بينهما فهم قريش المتدهور للطبيعة
الحقيقية للدين التى تسمو على أداء الطقوس ، والتى تتطلب الحميمة والجهاد الأخلاقى
المستمر .

ولتطمئن محمداً (ﷺ) ، استشارت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى درس
نصوص أهل الكتاب ، والذى يستطيع نصحهما بخبرته . تهلل ورقة قائلاً بابتهاج :

«قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتينى يا خديجة ، لقد
جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له :
فليثبت» . [السيرة النبوية : ص ١٨٢] (٤٣) .

وتوجه الرسول (ﷺ) إلى الكعبة للطواف ، فلقبه ورقة فقال : يا ابن أخى أخبرنى
بما رأيت وسمعت . فأخبره ، فقال ورقة بن نوفل : ليتنى أكون حياً حين يخرجك
قومك . فقال محمد (ﷺ) : أو مخرجى هم؟ قال : نعم ، إنه لم يجىء رجل قط بما
جئت به إلا عودى ، ولئن أدركت يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم أدنى رأسه منه ، فقبل
يا فوخه (أى رأسه) .

انصرف محمد (ﷺ) منزجاً إلى منزله ، إنه لا يتحمل العيش خارج مكة ، وهل
يعاديه قومه الذين يحبهم؟ أخبره ورقة أنه لا كرامة لنبى فى وطنه .

كانت بداية صعبة ، محفوفة بالخوف والقلق والتهديد بالاضطهاد .

ولكن يرى القرآن نزول الروح القدس على محمد (ﷺ) فى غار حراء بصورة
أخرى [عن تلك التى جاءت فى الحديث والسنة] ، كحدث عجيب ، رقيق ، فيه سلام
وسكينة ، مثل حمل مريم بعبسى (عليهما الصلاة والسلام) ، فقال :

﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هَيْنَ وَلِنَجْمِلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَوَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلَّمِي وَاشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة مريم : ١٦ - ٢٧].

﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابِنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة الأنبياء : ٩١] (٤٤).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [سورة القدر : ١ - ٥] (٤٥).

هناك إخفاء متعمد للذكورة والأنوثة في هذه السورة من القرآن، خاصة في الضمائر، التي عادة ما تفقد في الترجمة. وكان السؤال ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾ يمهد لتقديم فكرة غريبة لأتباع محمد (ﷺ) الأوائل، موضحة أنهم على وشك دخول عالم يفوق الوصف. هنا طمس محمد (ﷺ) من ذاكرته هول غار حراء، وتصدرت ليلة القدر المركز كامرأة في انتظار حبيبها. افتتحت ليلة القدر عصرًا جديدًا للمشاركة بين السماء والأرض، وتحولت الرهبة الأصلية من ملاقاته المقدس إلى سكينته آخر الليل، عندما تتطلع دنياه لانبلاج ضوء النهار.

كان محمد (ﷺ) ليفهم قول المؤرخ الألماني رودولف أتو، الذي وصف المقدس أنه غموض فاتن ومرعب في وقت واحد. إنه كان قوة خارقة، ملحة، هائلة، ولكنها تملأ الإنسان بـ «البهجة، والسعادة والشعور بالتناغم المتزايد والعلاقات الحميمة» (٤٦).

لم يكن من السهل وصف الوحي بطريقة بسيطة، وجعلت صعوبة التجربة محمداً (ﷺ) حذراً جداً في إخبار أحد عنها. تتابعت الرؤى - ولا نعرف كم مرة تكررت - ولكن بعد ذلك، انقطع الوحي مما سبب حزننا لمحمد (ﷺ).

كان وقت خواء روحى فظيع. هل توهم محمد (ﷺ) كل ذلك؟ هل تسبب في كل ذلك جنى مؤذ؟ أم وجده الله متلهفًا فتخلى عنه؟ ظلت السماء جافية عن محمد (ﷺ) بقسوة عامين طويلين، ثم بعد ذلك، انقشع الظلام فجأة بنور ساطع يؤكد:

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [سورة الضحى: ١ - ١١] (٤٧).

طمأن الله محمداً (ﷺ) بأنه لم يتخل عن عبيده، وذكر الرجال والنساء أن يتعلقوا بفضله وكرمه الدائم. على الإنسان الذى تمتع برعاية الله، أن يساعد اليتيم والمحروم. يجب على كل إنسان تعرض للتمهيش والجوع والقمع، أن يرفض - تحت أى ظروف - تحويل ألمه للآخرين.

ثم أبلغ الوحي محمداً (ﷺ) أن الوقت قد حان لإبلاغ هذه الرسالة إلى قريش، ولكن كيف سيكون رد فعلها؟.
